المحاضرة الثالثة: الإحياء الشعري في المغرب العربي

شهد الوطن العربي منذ القرن التاسع عشر حركة شعرية هائلة تضاهي تلك الأشعار والقصائد الغراء لفحول الشعراء منذ الجاهلية إلى القرن الخامس الهجري، فنبغ في البلاد العربية شعراء تركوا بصمتهم، وأطلق على هذه المرحلة في حياة الشعر العربي الحديث أسماء عديدة كشعر النهضة، وشعراء الإحياء، وشعر البعث، والمدرسة الاتباعية، والمدرسة الكلاسيكية ، والمدرسة التقليدية، وما شابه ذلك من مسميات.

إذا كان محمود سامي البارودي رائد الإحياء الشعري في المشرق العربي، فإن رائد الإحياء الشعري في المغرب العربي وحسب العديد من الدارسين هو الأمير عبد القادر الجزائري (1807-1883)، وهذا نظرا لإسهاماته ونتاجه الشعري، فكان مقلدا للقصيدة العربية مثل تأثره بقصائد عمرو بن كلثوم وزهير بت أبي سلمى وعنترة بن شداد في معاني الشوق والحنين ولوعة الفراق، فتجلى تمثله للقصيدة العربية على مستوى المعنى والمبنى والغرض.

اجتمعت للأمير عبد القادر الجزائري أسباب الفروسية والشاعرية، وعرف بثقافته الواسعة وتكوينه الديني والأدب واللغوي، حيث أولاه والده عناية خاصة بحسن تربيته وتكوينه، وكذا تدريبه على الفروسية والسلاح، كما عرف عنه تحمله لأعباء المسؤولية ومصاعبها، فأوكلت له الإمارة وإدارة البلاد وقيادة الجيش وهو في مقتبل العمر.

تناول الأمير عبد القادر الأغراض شعرية المتداولة عند الشعراء القدامى، ومنها غرض الفخر في قوله:

لنا في كلِ مكرمة مجـــــالُ ومن فوق السماك لنا رجـــــالُ
ركِبنا للمكَارم كلَّ هـــــــولِ وخُضنا أبْحرا ولها رِجـــــــــــالُ
إذا عنها توانى الغير عجزا فنحن الراحلون لها العجالُ

يتغنى الأمير في هذا المقطع الشعري بمآثر قومه، ويعدد خصالهم ومناقبهم من شجاعة وقوة وكرم وجود ورجولة، وما إلى ذلك من معاني الفخر المتداولة عند الشعراء العرب القدامى.

كما نجد غرض الفخر عند الأمير في قصيدة (بي يحتمي جيشي)، مقلدا الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد:

تسائلني أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجلي هموم القوم في يوم تجوال؟!
وأغشى مضيق الموت لا متهيبا وأحمي نساء الحي في يوم تهوال

إن هذا الفخر الفردي بالقوة والبطولة، ومخاطبة الأمير لزوجته وابنة عمه (أم البنين) يجعلنا نستحضر شعر عنترة وهو يحمل على الأعداء ويخاطب ابنة عمه (عبلة) قائلا:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلم
يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

يقول عنترة مخاطبا عبلة أن من شهد المعركة سيخبرها أنه كان يقتحم الموت ويقاتل بجسارة، وبعد تحقيق النصر يزهد في جميع الغنائم. نرى في هذا المقطع الشعري تأثر الأمير الشاعر الفارس بشعر عنترة، فإن اختلف العصر، لكن الخيل ماتزال العدة القديمة الحديثة في مقارعة الأعداء، تغنى الأمير بالأخلاق السامية منها على الخصوص الشجاعة والفروسية والباس والبطش بالعدو مثل الشعراء القدامى (عنترة، المتنبي....).

ثم نراه يستعرض مفاخره بصيغة الإفراد على طريقة عنترة بن شداد، نحو قوله:

سلي البيد عني والمفاوز والربى وسهلا وحزنا كم طويت بترحالي

فما همتي إلا مقارعة العـــــــــــدا وهزمي أبطالا شدادا بأبطـــــــــالي

يفتخر الأمير بنفسه معتزا بسجاياه وشيمه، يذكر صولاته ومقارعته الأعداء، والنيل منهم يوم الزحف موظفا ضمير المتكلم بصيغة الإفراد (أنا) للحديث عن الذات في تعاليها وتساميها، مستوحيا مضامين شعره مما طرقه القدامى من مضامين متصلة بالبيئة وأحوالها، مستهلا أبياته بمخاطبة الآخر للوصول إلى الإعتزاز بنفسه والتنويه بإقدامه وشجاعته.

وفي أبيات شعرة أخرى نجده متمسكا بحياة البادية (البداوة) معتزا بها ومفضلا إياها على العيش في الحضر، منوها بمحاسنها وفضائلها ومحاسن الجمال فيها، مرغِّبا فيها ومفضِّلا إياها على غيرها من الأمكنة، وذلك تحت تأثير البيئة التي نشأ في أحضانها:

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعاذلا لمحب البدو والقفر

لا تذممن بيوتا قد خف محملها وتمدحن بيوت الطين والحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر

وهو في معرض مقارنته بين الحياتين (البدو/الحضر) لا ينسى فخرياته التي تجري على نمط واحد من الصياغة والتعبير والوصف الممزوج بنبرة خطابية نشعر معها بسريان روح القصيدة العربية القديمة على عادة الشعراء الفرسان القدامى، دونما تجديد أو إبداع يستحق الذكر، كقوله:

فخيلنا دائما للحرب مسرجة من استغاث بنا بشره بالظفرِ

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا وأيُّ عيش لمن قد بات في حفر

إن شعر الأمير عبد القادر الجزائري انبنى على نقطتين أساسيتين : ،

1- الفخر الفطري الطبيعي النابع من نسبه الشريف الذي يرجع إلى آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو من عائلة كريمة المنبت أصلها ثابت في المجد وفرعها يطاول عنان السماء جودا وفضلا وشرفا، فكان يتكأ على هذه المزية المحورية في الاعتزاز بمنزلته الشريفة، يقول مفتخرا بذلك:

أبونا رســـــــــــــول الله خير الـــــــــورى فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب وعن رتبة تسمو وبيضاء أو صفرا

ومن رام إذلالا لنا قـــــــــلت: حسبنا إله الـــــــــــورى والجدِّ أنعم به ذخـرا

2- الفخر الارادي المكتسب وله علاقة بأفعاله الجليلة ومواقفه البطولية في الحرب والسلم، حتى يكون حلقة وصل بين آبائه وأبنائه.

ومن الأغراض التقليدية الأخرى المتناولة في شعر الأمير غرض الغزل اقتفاءً منه لأثر الشعراء القدامى كقوله:

ألا هل يجود الدهر بعد فراقنا فيجمعنا والدهر يجري إلى الضد

وأشكو ما قد نلت من ألم وما تحمّـــــــــــلـه ضعفي وعالجه جهدي

لكي تعلـــــمي-أم البنين- بأنه فراقـــــــك نار واقترابك من خلـــــد

واللافت أن هذه الأبيات على ما فيها من إشارات غزلية إلا أنها لا تخلو من الشكوى والألم، هي فنجده يعترف بضعفه وقلة حيلته أمام ألم الفراق. فعلاقة الشاعر بالمرأة هي التي أثارت فيه غرض الغزل وكانت الدافع الأساسي لنظمه الشعر الغزلي، وكذا دور الأمومة في حياته، أما الدافع الثاني فهو سلطان الجمال ووقعه في نفسيته وإحساسه به.

كما نجد أيضا أن الأمير خاض في التصوف الذي يعبر عن تكوينه الديني وما تعلمه من القرآن الكريم وأحكام الشرع الحنيف، فالأمير نشأ وشب في بيئة محافظة وأسرة متدينة كان لها الدور الكبير والفعال في تنشئته الدينية فكان رجلا محافظا، زاهدا في الدنيا، كما في قوله:

أود طول الليل أن خلوت بهم وقـــــــد أديرت أباريق وأقداح
يروعني الصبح إن لاحت طلائعه يا ليتــه لم يكن ضوء وإصباح
ليلي بدا مشرقا من حسن طلعتهم وكـــــل ذا الدهر أنوار وأفـراح

ويعزى سلوك الأمير مسلك التصوف في شعره إلى ظروف نشأته " في أسرة دينية محافظة، غرست في نفسه حب العبادة والتقوى، والزهد في الدنيا، لذلك فلا عجب أن نجده ينحو منحى صوفيا خلال حياته، ويتخذ أقطاب الصوفية أساتذة ومشايخ له يمدحهم ويعظهم محبة لهم وإرضاءً لهوى في نفسه".

إن ثقافة الأمير عبد القادر التقليدية القائمة على إطلاعه على الشعر العربي القديم وحفظه للكثير منه، وإلمامه بأساليبه وصوره ومعانيه وقوالبه ومبادئه. فقد تأثر الأمير بلغة الشعراء العرب القدامى وبأساليبهم الشعرية متناولا أغراضهم، منتهجا نهجهم في التعبير عن الشجاعة والجود والكرم والفروسية. وكذا حفظه للقرآن الكريم وتشبعه بقيمه وتعاليمه هي التي أسهمت في توجيه شعره، وطبعته بهذه الطوابع من المحافظة والتقليد وترسم نهج القدامى، حتى قرن إحياء الشعر في المشرق العربي بالبارودي وارتبط في المغرب العربي بالأمير عبد القادر، اعترافا بمكانته على الرغم مما يوجد بين الشاعرين من نقاط اختلاف خاصة ما تعلق بظروف النشأة وهموم المسؤولية وتنوع القراءات لكل منهما.